طبيب أديب

للأستاذ عباس خضر

عاش هذا الرجل ببغداد في القرن السادس الهجري، في الوقت الذي كان قد مضت فيه حقبة طويلة على اكتمال الحركة العلمية في العصر العباسي ونضج ثمارها، وانتقلت من مراحل النقل والترجمة والشرح والتلخيص والتمحيص، إلى طور الإنتاج والاختراع والإنشاء. وكان هذا التقدم العلمي على عكس التدهور والاضطراب السياسيين، أو قل إن الازدهار العلمي قد عمر أكثر من الازدهار السياسي.

ولا أسترسل في ذلك، فلنعد إلى صاحبنا، وهو أمين الدولة ابن التلميذ الطبيب الأديب. قالوا: إنه كان أوحد عصره في صناعة الطب، وكان إلى ذلك أديباً، له شعر جيد ورسائل بليغة. ولم يجذبني ما رووا عنه من الشعر والنثر ومن البراعة في فنون العلاج الطبي، بمقدار ما راعتني صفات أخرى فيه، يسمونها في عصرنا «واجب الطبيب الإنساني» وقد عرفه واجباً عملياً قبل أن يأتي زماننا فيردده كلاماً طلياً..

كانت داره بجوار المدرسة النظامية في بغداد، فكان يتفقد مطبها وطلبتها، إذا مرض أحدهم نقله إلى داره وقام عليه في مرضه، فإذا شفي أذن له في الانصراف ووهب له دينارين.

وعرض ليعض الأمراء الناثين مرض عضال، فقيل له ليس لك إلا ابن التلميذ وهو لا يقصد أحداً. فقال: أنا أتوجه إليه، فلما وصل أنزله ومن معه في ضيافته، وعني بمعالجته، فلما برئ الأمير وتوجه إلى بلاده أرسل إلى ابن التلميذ مع أحد التجار مالاً كثيراً وهدايا ثمينة، فامتنع من قبولها وقال: إن علي يميناً ألا أقبل من أحد شيئاً. فقال التاجر: هذا مقدار كثير. قال: لما حلفت ما استثنيت. وأقام التاجر شهراً يراوده فلا يزداد إلا إباء. فقال له عند الوداع: ها أنا أسافر ولا أرجع إلى صاحبي، وأتمتع بالمال فتتقلد منته وتفوتك منفعته ولا يعلم أحد أنك رددته. فقال: ألست أعلم في نفسي أني لم أقبله؟ فعلى تشرف بذلك علم الناس أو جهلوا!

وقد اعتاد معاصرونا أن ينتسبوا إلى شرف المهنة، ولكن ابن التلميذ كان الأمر عنده أبعد غوراً، كانت أصوله في نفسه، فقد درس الفلسفة ومزج الحقائق الخلقية بنفسه ودرس الطب مقروناً بالفلسفة المكونة للانسان الجدير بلقب «الحكيم» فكل مايعنيه هو شرف نفسه الذي يشترك فيه كل إنسان راق، والذي ينبع منه «شرف المهنة» إن كان لا بد من هذه التسمية. ولعل اتصاف الأطباء بتلك الأصول الخلقية في ذلك الزمن واقتران دراستهم الطبية بالدراسة الفلسفية، وإطلاق كلمة الحكمة على كل ذلك، لعل ذلك هو الأصل الذي يرجع إليه إطلاق العامة لفظ «حكيم» على الطبيب.

وكان ابن التلميذ رئيس المستشفى العضدي ببغداد وقد فوض إليه الخليفة رياسة الطب فيها، فكان من شأنه الإشراف على الأطباء وإقرارهم على مزاولة المهنة بعد اختبارهم ومعرفة ما عند

والنمر، وما في الأرض والسماء من قوى وعبر، فهي كل القرآن وهي موضوع العلم الحديث، ومن يتبحرون فيها هم علماء الدين الذين يخشون الله ويخدمون الأمة، ويرعون شأن الملة.

علوم الإسلام، هي الصناعة والزراعة والطب والهندسة وما إلى ذلك. وأما علوم الكلام والفقه والأصول وما جاراها، فليست من الإسلام في شيء. وقد بلغت وما أنا إلا حريص على نهوض المسلمين، والسلام على من اتبع الهدى.

عطية الشيخ
القنطرة بالمارف

كل منهم فيها ، وفى أحد مجالس الاختبار حضر شيخ له هيئة ووقار ، ولم يكن عنده من صناعة الطب إلا التظاهر بها ، وإن كان له دربة يسيرة بالمعالجة ، فلما انتهى السؤال إليه قال له أمين الدولة :

— ما السبب فى كون الشيخ لم يشارك الجماعة فيما يبحثون فيه حتى نعلم ما عنده من هذه الصناعة ؟

— يا سيدنا ، وهل شىء مما تكلموا فيه إلا وأنا أعلمه وقد سبق إلى فهمى أضعاف ذلك مرات كثيرة !

— فعلى من كنت قد قرأت هذه الصناعة ؟

— يا سيدنا ، إذا صار الإنسان إلى هذه السن ما يليق به إلا أن يسأل كم من التلاميذ له ، ومن هو المتميز فيهم ، وأما المشايخ الذين قرأت عليهم فقد ماتوا من زمان طويل .

— يا شيخ ، هذا شىء قد جرت العادة به ولا يضر ذكره ومع هذا فما علينا ، أخبرنى أى شىء قرأته من الكتب الطبية ؟

— سبحان الله العظيم — صرنا إلى حد ما يسأل عنه الصبيان ! يا سيدنا ، لمثلى لا يقال إلا أى شىء صنفته فى صناعة الطب وكم لك فيها من الكتب والمقالات ، ولا بد أن أعرفك بنفسى .

ودنا إلى أمير الدولة وقال له فيما بينهما :

— إعلم أنى قد شخت وأنا أوسم بهذه الصناعة ، وما عندى منها إلا معرفة اصطلاحات مشهورة فى المداواة ، وعمرى كله أتكسب بها ، وعندى أولاد ، فسألتك بالله ألا تفضحنى بين هؤلاء الجماعة وألا تمحقنى التكسب لعيالى .

— لك ذلك ولكن على شريطة ، وهى أنك لا تهجم على مريض بما لا تعلمه ، ولا تشير بفصد ولا بدواء مسهل إلا لما قرب من الأصحاء .

— هذا مذهبى منذ كنت .

ورفع أمين الدولة صوته والجماعة تسمع : يا شيخ اعذرنا فإنا ما كنا نعرفك والآن فقد عرفناك ...

ومن الظريف ما حدث بعد ذلك ، فقد التفت كبير الأطباء إلى أحدهم وقال له :

— على من تعلمت هذه الصناعة ؟

— يا سيدنا ، أنا من تلاميذ هذا الشيخ الذى قد عرفته وعنه أخذت صناعة الطب .

وكان أمين الدولة نصرانياً ، عاش فى تلك البيئة الإسلامية السمحة مكرماً مقدراً أكبر التقدير ، يحظى بهبات الخلفاء وعطفهم ، ويحل المنزلة التى تليق به فى نفوس معاصريه من الأشراف والشعراء ، ومما وجه إليه من الشعر ما كتب له الطغرائى يشكو ألماً فى ظهره :

يا سيدى والذى مودته ... عندى روح يحيا بها الجسد
من ألم الظهر أستغيث وهل ... بألم ظهر إليك يستند ؟

وقد حسده طبيب يهودى اسمه أبو البركات على منزلته لدى الخليفة العباسى المستضىء بأمر الله ، فاحتال للدس عليه بحيلة وضيعة ، كتب رقعة نسب فيها إلى أمين الدولة أموراً تحط من قدره ، وأومأ إلى من ألقاها فى طريق الخليفة ، فلما قرأها الخليفة رأى أن يتحقق من صدق ما تحتويه ، فلما استقصى الأمر وجده اختلافاً ، وعرف أن كاتبها أبو البركات ، فنقض عليه ووهب دمه وماله وكتبه لأمين الدولة ، ولكن شرف النفس منعه أن يتعرض لخصمه بسوء ، فسقط أبو البركات وانحطت منزلته .

وقال أحد الشعراء فى الطبيبين ، وكانت كنية أمين الدولة أبا الحسن .

أبو الحسن الطبيب ومقتفيه ... أبو البركات فى طرق نقيض
فهذا بالتواضع فى الثريا ... وهذا بالتكبر فى الحضيض

وقد جمع هذا الحكيم المهذب (أمين الدولة) قواعد السلوك السبيل وأسباب الحياة الراقية فى رسالة كتبها إلى ولده رضى الدولة ، والمتأمل فى حياته من خلال ما يروى عنه يراها تطبيقات على ما ضمنه رسالته ، قال فيها :

« وفز بحظ نفيس من العلم تتق من نفسك بأن عقلته وملكته لا قرأته ورويته ، فإن بقيته الحفظ تتبع هذا الحظ المذكور وتلزم صاحبه ، ومتى طلبها من دونه فإما أن لا يجدها وإما أن لا يعتمد عليها إذا وجدها . ولا تثق بداوها ، وأعوذ بالله أن ترضى نفسك إلا بما يليق بمثلك أن يتسامى إليه بطو همته وشدة أنفته وغيرته على نفسه ، ومما قد كررت عليك الوصاة به ألا تحرص على أن تقول شيئاً لا يكون مهذباً فى معناه ولفظه ،

ويتعين عليك إيراده ، فأما معظم حرصك فتصرفه إلى أن تسمع ما تستفيده لا ما يلهيك ويلذ للأغمار وأهل الجهالة ، نزهك الله عن طبقتهم . فإن الأمر كما قال أفلاطون الفضائل مرة الورد حلوة الصدر ، والرذائل حلوة الورد مرة الصدر . وقد زاد أرسطاطاليس في هذا المعنى فقال : إن الرذائل لا تكون حلوة الورد عند ذي فطرة فائقة ، بل يؤديه تصور قبحها إذ يفسد عليه ما يستلذه غيره منها ، وكذلك يكون صاحب الطبع الفائق قادراً بنفسه على معرفة ما ينوخى وما يجتنب كالتام الصحة يكفي حسه في تعريفه النافع والضار . فلا ترض لنفسك حفظك الله إلا بما تعلم أنه يناسب طبقة أمثالك ، واغلب خطرات الهوى بعزمات الرجال الراشدين »

وهذا الأسلوب غريب في عصره الذي بدأ يوضع مثله السيوطي ابن العميد الذي لم تختم به الكتابة كما قيل ، بل ختمت بمن قبله ثم بعثت بابن خلدون .

ورسالة أمين الدولة المتقدمة أشبه بكتابة الأساتذة الأوائل كابن المقفع والجاحظ ، فأنت تراه يركب التعبير مطمئناً فارهاً إلى حيث يقصد . وبعض الكتاب يركبه التعبير فيتكع به ، وآخرون يركبون التعبير الهزيل فلا يصل بهم إلا مهور الأنفاس

ولأمين الدولة شعر جيد ، قال في ولد له غير نجيب :

أشكو إلى الله صاحباً شكسا تسفه النفس وهو يسفها
فنحن كالشمس والهلال سنا تكسبه النور وهو يكسفها

وتطل الفلسفة من خلال شعره إذ يقول :

لولا حجاب أمام النفس يمنعها من الحقيقة فيما كان في الأزل
لأدركت كل شيء عز مطلبه حتى الحقيقة في الطول والطل

كما تبدو الحكمة في قوله :

لا تحقرن عدواً لان جانبه ولو يكون قليل البطش والجلد
فللذبابة في الجرح المعد يد تنال ما قصرت عنه يد الأسد

وله شعر في الألغاز ، على طريقة عصره ، وقد أحسن التعبير عن الميزان إذ قال لغزاً فيه :

ما واحد تختلف الأهواء بعدل في الأرض وفي السماء
يحكم بالقسط بلا رياء أعمى يرى الرشاد كل رائي
أخرس لا من علة وداء ينهى عن التصريح بالإفشاء
يجيب إذ ناداه ذو استراء بالرفع والخفض عن النداء

ومن بديع مدحه قوله :

لا يسترح إلى العلات معتذراً إذا الضنين رأى للبخل تأويلا
يبادر الجود سبقاً للسؤال يرى تعجيله عند بذل الوجه تأجيلا

وله مؤلفات كثيرة في الطب ، وقد روى بعض المؤرخين نوادر تدل على حذقه في العلاج وصواب حدسه في معرفة الداء ، منها أنه أحضرت إليه امرأة محمولة لا يعرف أهلها في الحياة هي أم في الممات ، وكان الزمان شتاء ، فأمر بتجريدها وصب الماء البارد عليها صباً متتابعاً كثيراً (كالدش) ثم أمر بنقلها إلى مجلس دفئ قد بخر بالعود والند ، ودثرت بأصناف الغراء ساعة ، فبسطت وتحركت وقعدت ، وخرجت ماشية مع أهلها إلى منزلها

ومن ذلك أن دخل عليه رجل منزوف يرعف دماً في زمن الصيف ، فأمره أن يأكل خبز شعير مع باذنجان مشوي ، ففعل ذلك ثلاثة أيام ، فبرئ . وقال في تعليل ذلك : إن دم الريض قد رق ومسامه قد تفتحت ، وهذا الغذاء من شأنه تغليظ الدم وتكثيف المسام .

وقد عمر أمين الدولة ، إذ بلغ أربعاً وتسعين سنة . ومن تجمله في كبره أن كان عند المستضيء بأمر الله ، فلما أراد القيام توكأ على ركبتيه ، فقال له الخليفة : كبرت يا أمين الدولة ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، وتكسرت قواريري . ففكر الخليفة في قوله هذا ، وأنه لا يد يقصد شيئاً بتكسير القوارير . ثم علم أن الخليفة السابق كان قد وهبه ضيعة تسمى قوارير ، وظلت في يده ، ثم وضع الوزير يده عليها منذ ثلاث سنين . فتعجب الخليفة من حسن أدب أمين الدولة وأنه لم ينه أمرها إليه ، وأمر بإعادة الضيعة إلى صاحبها وألا يعارض في شيء من ملكه .

وبعد فهذا واحد من سلف بنوا صرح الحضارة في العصور الإسلامية ، وعنهم أخذ الغربيون إبان نهضتهم العلمية في أعقاب القرون الوسطى . فإن كنا الآن نأخذ من الغرب فإنا نقتضيه ديناً عليه لأمثال أمين الدولة بن التلميذ .

عباس مضر